الإدراك السوسيولوجي لوباء كورونا
بحث في أثر العوامل السوسيولوجية

Sociological perception of the Corona epidemic, an examination of the impact of sociological factors

عبد الرزاق عريف[1*]، شايب ذراع ميدني[2]

[1] جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)arif.abderrazak@univ-ouargla.dz

[2] جامعة محمّد خيضر بسكرة (الجزائر)chaib.midni@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/01/03؛ **تاريخ القبول**: 2021/03/22؛ **تاريخ النشر**: 2021/04/15

ملخص:

لاشك أن وباء كورونا المستجد واحد من الأوبئة والأمراض التي عرفت انتشارا واسعا وتفشيا رهيبا وسط المجتمعات، والذي اخترق كل الحدود وأزال جميع المسافات. حتى بات يعرف بالعدو الخفي والقاتل الصامت. لذلك كانت غاية هذه الدراسة البحث في عملية الإدراك السوسيولوجي لهذا الوباء، من خلال معرفة:

–إلى أي مدى تعتبر العوامل السوسيولوجية (الاجتماعية) عوامل مفسرة ومؤثرة في تفشي هذا الوباء داخل المجتمعات؟

وخلصت الدراسة إلى:

–إبراز أهمية العوامل السوسيولوجية في دراسة هذا الوباء بشكل خاص والأوبئة بشكل عام.

–ضرورة إشراك التخصصات الاجتماعية في المجالات الطبية.

الكلمات الدالة : الإدراك السوسيولوجي/ وباء كورونا/ المجتمع/ الصحة.

Abstract:

There is no doubt That The new Corona pandemic is one of the pandemics and diseases that have known wide spread and terrible outbreaks among societies, which has penetrated all borders and eliminated all distances. It even became known as the hidden enemy and the silent killer. Therefore, the purpose of This study was to investigate the process of sociological perception of this pandemic, through the knowledge of:

To what extent are sociological (social) factors are considered as explaining and influencing in the spread of this pandemic within societies?

. This study concluded :

Highlighting the importance of sociological factors in studying this pandemic in particular and epidemics in general.

The necessity of involving social specialties in the medical fields

Key words : sociological awareness , Corona pandemic ,society, health

*المؤلف المرسل.

تمهيد :

تشكل سوسيولوجيا الصحة احد المفاهيم المستحدثة في علم الصحة العامة، حيث يفضل الكثير من العلماء تسمية الصحة العامة بالصحة الاجتماعية، تأكيداً على الصلة الوثيقة بين الصحة والظروف الاجتماعية بل يؤكد العلماء على أهمية دراسة العلوم الاجتماعية، كأساس ضروري لدراسة علم الصحة العامة، ومن هنا لا يمكن أن تحقق برامج الصحة أهدافها، إلا من خلال دراسة الحياة الاجتماعية، حيث أن هناك علاقة بين المشاكل الصحية والظروف الاجتماعية للإنسان.

كما أن هناك علاقة قارة بين الصحة والنظم الاجتماعية، فهذا المنظور يهتم بتحليل الأساليب الكيفية التي تستخدم بها الصحة لمعالجة المشكلات الموجودة في المجالات الأخرى للنشاط الاجتماعي، وهذا المنظور المجتمعي أكثر تجريدا من المنظورات الأخرى، لذلك نجد آن الفلسفة الحديثة للصحة العامة، قد تحولت من الاهتمام بالفرد إلى الاهتمام بالمجتمع.

وهناك الكثير من المشاكل الصحية لا يمكن علاجها إلا بالمشاركة المجتمعية الإيجابية ، مثل أمراض سوء التغذية والأمراض الطفيلية والأوبئة المستجدة، التي تتطلب تجاوب الناس مع العادات الغذائية السليمة والسلوك الصحي السليم، فيما يتعلق بشرب واستعمال المياه النقية ، النظافة ، تناول الأكل الصحي أو قضاء الحاجة...الخ. ولهذا باتت العوامل الاجتماعية على غرار الأسرة والسكن والبدين ، عوامل ذات تأثير بالغ على تفشي هذا الأوبئة، لدلك سعت هذه الدراسة الإجابة عن التساؤل المطروح ، حول العوامل الاجتماعية وتأثيرها على تفشي هذا الوباء، وكيف ساعدت هذه العوامل في سرعة انتشاره. وبالتالي كان الهدف والغاية من هده الدراسة هو الوصول إلى توصيف هذه العلاقة من جهة، وإيجاد الآليات والوسائل للمعالجة والتشخيص من جهة أخرى.

I. سوسيولوجيا الصحة:

لقد استطاع علم الاجتماع- وعلى الرغم من التأخر النسبي لظهوره كمجال معرفي خاص- أن يحقق نتائج نالت اعتراف عديد التخصصات خاصة المادية والتقنية منها، "وحتى الأمراض التي كان يعتقد أن أساسها بيولويوجي نابع من جسم الإنسان، باتت محصورة في نطاق المجتمع. خاصة مع تزايد التصورات والرؤى السوسيولوجية لهذه الأمراض والأوبئة. وهذا ما لمح إليه الباحث François Ewald بقوله "La société n'a pas d'extérieur " أي "المجتمع ليس له خارج" (**فضيلة صدراتي،2005-2006، 39**)

إذن تبدو العلاقة بين السوسيولوجيا والطب تقليدية منذ أكثر من القرن والنصف، إلا أن تطور المجتمع الصناعي جعلها تتبلور كعلم حديث متخصص ومنفصل، "وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وشهد العام 1951 قفزة نوعية للبحوث السوسيولوجية الامبيريقية ، التي أضحت تواكب التطورات الطبية الحديثة ، وارتباط هذه الأخير بأسبابها البيئية والاجتماعية.ليتجه ميدان الصحة بشكل حتمي وأساسي نحو الدراسات السوسيولوجية".(**guyot jaun-claud،1985، 8-7**)

وكان لتعقد الحياة وصعوبتها واختلاف المجالات فيها إلى إبراز إسهامات علم الاجتماع وبخاصة في توضيح المعالم والأبعاد الاجتماعية والثقافية للصحة والمرض ، "ونذكر في هذا دراسات الباحث الفرنسي الكبير **مشيل فوكو** (تاريخ الجنون في العصر

الكلاسيكي-1961)،(ميلاد العيادة-1963م)، سوسيولوجية الأمراض العقلية-1965م).(**عبد العلي دبله،2004، 228-229**).

لقد حاولت هذه الدراسات السوسيولوجية في مجال الأمراض والأوبئة أن تضع مقاربة سوسيولوجية في عملية تفسير وتوصيف تفشي هذا الوباء، خاصة بعدما صار جائحة عالمية. لتكشف بعد دراسات طويلة وجهود حثيثة إلى أهمية ودور هذه العوامل الاجتماعية والثقافية في الحالة الصحية للإنسان. وبالتالي النظر إلى الصحة كعامل توازن يجب تجديده باستمرار بين العضوية البيولوجية والوسط الحياتي الاجتماعي. هذا وقد لخص François Stendler الباحث دوافع الاهتمام السوسيولوجي بالصحة في دافعين مهمين وهما:

- التطور التقني والتنظيمي.
- دور العوامل الاجتماعية والبيئية في ظهور وتطور الأمراض.

لذلك يرى الباحث **jean Claude gayot** في كتابه الموسوم" **أي طب لآي مجتمع**" أن أزمة الطب في حد ذاتها أزمة المجتمع، ذلك أن الحقيقة السوسيولوجية ليست بعيدة عن الحقيقة الطبية. وهذا ما يذهب إليه أيضا الباحث **Royer-pierre** بقوله" إذا قبلنا بوجود طب نفسي جسمي، فالواجب القبول جدا بالطب الاجتماعي العضوي". وبهذا بات المجال الطبي موضوعا وحقلا خصبا للبحث السوسيولوجي، حيث اعتبر عنصرا من النسق الاجتماعي، موجه لحماية هذا النسق من كافة أشكال الأمراض والأوبئة.(**guyot jaun-claud،1985،8-7**)

لذلك ومع بداية تفشي وانتشار وباء كورونا على نطاق واسع، وصار جائحة عالمية ، برزت العوامل الاجتماعية والثقافية كلاعب محوري في معادلة الصحة والمرض، باعتبارها رقما مهما في هذه العملية والنتائج التي تفرزها، خاصة أن كل الأمراض والأوبئة السالفة الذكر وغيرها خضعت وتحكمت في انتشارها بشكل مباشر المتغيرات السوسيوثقافية.

II. وباء كورونا(قراءة سوسيولوجية):

رغم أن المجتمعات شهدت عبر مراحلها التاريخية كثيرا من الأمراض والأوبئة، فتكت بكثير من الأرواح سواء على النطاق المحلي أو العام العالمي. "وقد أشار العلامة ابن خلدون- باعتباره المؤرخ السباق في اكتشاف العلاقة بين المرض ومكان العيش- إلى العلاقة بين شكل المجتمع والمرض السائد فيه منذ قرون ، حيث قارن ظروف الحياة في الأوساط الحضرية والريفية، مستخلصا أن سكان المدن معرضون أكثر للمرض من سكان البدو والأرياف، الذي دوافعه الأساسية (الإقامة الحضرية، أنماط الأكل الغذائي الأكثر غنى وإفراط في تناولها، التلوث بتكديس النفايات والدخان والضباب الملوث)".(**ahmed aroua،1985،45**) وهي نفس حقيقة الظاهرة المرضية المتصاعدة في مجتمعنا التكنولوجي العصري. ولعل أخرها كان وباء كورونا المستجد، والتي كانت ابرز محطاته عواصم الدول الصناعية الكبرى(الصين، المدن الأوربية، دول الشرق الأوسط، الدول الأمريكية).

في هذا المنحى اعتبر الباحث المغربي (**رشيد ابعوش)- في مقاربته عن المجتمع المغربي وتمثلاته لفيروس كورونا-** (أن هذا الوباء عرف تحولا من فيروس كمرض بيولوجي إلى ظاهرة اجتماعية عالمية ، وذلك من خلال التركيز على مفهومي" التعايش للمريض والمرض" ومفهوم " الدور " "والبناء الاجتماعي للمرض" إضافة إلى مفهوم "الخلل" كمفاهيم مركزية لدى **تالكوت**

بارسونز في دراسته للمرض كظاهرة اجتماعية ، ففي فترة ظهور فيروس كورونا في دول الصين ، انفجرت التمثلات الاجتماعية لدى فئة من الأفراد في المجتمع المغربي ذات الصلة والعلاقة بالمسائل الدينية.

حيث اعتبر انتشار المرض ليس إلا سخط الهي. مما أدى إلى استبعاد صورة المريض أو المصاب، بل حتى كل من كان قادما من البلدان الغربية، نظرا لكونه لا يخضع لأوامر إلهية ، ولا يقوم بالدور المنوط إليه كفرد، والاستجابة لما ينتظره منه المجتمع و الدين الإسلامي بحكم الدين المهيمن على الثقافة المغربية، دون الأخذ بعين الاعتبار منطق الانفتاح على الأخر وتقبل ثقافته وقبول ديانته.

فمن خلال هذه التمثلات ذات البعد الإيديولوجي و الثقافي والديني، يتضح أن المريض يهمش بفعل التمثلات الاجتماعية للمرض باعتباره متمردا عن الدور الذي حدده الضمير الجمعي والثقافي والديني و الاجتماعي، وما تحدده ايضا ثقافة الوسط الذي ينتمي له ، مما قد يحدث ذلك خللا في العلاقات الاجتماعية، سواء على المستوى الفردي أو حتى على المستوى الاجتماعي ، إذ أن الخلل الاجتماعي يطرح علاقة المريض بالمجتمع ، لأن المريض في هذه الظرفية وفق تأويل الأفراد للمرض يهدد التوازن الاجتماعي، و ما عليه سوى الخضوع لأوامر المجتمع أو المراقبة الاجتماعية و تحرره مما يسميه " **اليوط فرايد سون** " بالانحراف الاجتماعي عن طريق الضبط المؤسساتي. فالمراقبة الاجتماعية وسلطة التمثلات الاجتماعية أصبحت بمثابة أمراض تستدعي العلاج نظرا، لكونها تكتسب دلالات مرضية تقتضي العلاج أكثر من انحرافات تقتضي العقاب.)(**رشيد ابعوش،2020**)

والقارئ لسرعة تفشي هذا الوباء وشمولية انتشاره، يدرك جليا أن هذا الأخير كشف عن عدة اختلالات داخل النسق الاجتماعي المؤسساتي، سواء على مستوى النظام الاجتماعي أو النظام السياسي. لذلك برزت جائحة كورونا كوباء مختلف عن هذه الأوبئة والفيروسات في كثير من النقاط أبرزها:

- **النطاق العالمي** : حيث عرف هذا الفيروس سرعة وتوسعا في الانتشار من بؤرته الأولى (الصين) إلى كافة أنحاء العالم في وقت وجيز وقياسي. خاصة في الدول الأوربية والأمريكية.
- **غياب الجاهزية والتهيئة الصحية**: وهذا ما شهدناه في المرحلة الأولى من تفشي هذه الفيروس، حيث وقفت معظم الدول وحتى الكبرى منها موقف المصدوم والحائر في مواجهة هذه الحرب الصحية بمفهوم الرئيس الفرنسي (**ماكرون**) في خطابه للفرنسيين غداة الدعوة للحجر الصحي في المنازل، فقد تبيّن أن معظم المراكز البحثية الخاصة بالأمراض والصحة ليست على مستوى التحدي المطلوب.
- **الاعتقال الذاتي(الحجر الطوعي)**: حيث لازمت المجتمعات، الحجر الصحي المنزلي طوعًا، وإتباع تعليمات الحكومات وإرشاداتها، عبر وسائل الإعلام، باعتبار أن منازلهم هي الأماكن الأكثر أمانًا لحمايتهم من وصول فيروس كورونا إليهم، أي أن الناس يفضلون الاعتقال الذاتي (الحجر الطوعي)، بدلًا عن الاعتقال الأمني .
- **التباعد الاجتماعي (مسافة الأمان)**: رغم أن الإنسان جبل على الاجتماع بالنظرة الخلدونية إلا أن نزعة الخوف التي لازمت الإنسان في فترة الفيروس ، فرضت عليه كثير من العادات الغير معتادة، وغيبت الكثير منها أيضا كالعناق والمصافحة...الخ. وتحولت المسافات من العاطفية إلى الاجتماعية وفق الطرح عالم الانتروبولوجيا (**ادوارد هل**). حيث مُنعت التجمعات بكل

أشكالها، في المدارس والجامعات، وأماكن العمل، والمراكز البحثية والثقافية، حتى أماكن الرياضة والأفراح والأحزان... الخ، واتخذت الحكومات إجراءات عقابية، في حال المخالفة، بدءًا من العقوبات المالية في الدول الأوروبية، وقد تصل إلى الاعتقال والسجن، وإلى التهديد والترهيب.

- **غياب العقلانية في التعامل:** لوحظ أيضًا انحسار العقلانية في سلوك معظم المواطنين، من الهلع والمبالغة في شراء السلع الاستهلاكية بكميات كبيرة، خوفًا من اختفائها من الأسواق، تبعًا لانفعالاتهم ومشاعرهم، وبعيدًا عن المنطق والعقل، في معظم بلدان العالم، وهذا ما انعكس جليا على اتجاهاتهم القيمية الحضرية الثقافية، حيث عرفت تغيرات جذرية في نمط حياتهم اليومية، وتبدلت ملامح حياتهم، وربما إذا طالت مدة انتشار فيروس كورونا، تنتهي التجربة بخلق معانٍ وقيم وأفكار وأنماط مختلفة للحياة الإنسانية عن الحالية.
- **الثقافة الصحية:** تباينت طرق التعامل مع هذا الوباء الكارثي، بين شعوب العالم، على مستوى الوعي والسلوك، ففي المجتمعات المتقدمة وخاصة الأوروبية، لوحظ الكثير من الوعي والسلوك المنضبط والمنظم والصارم بالالتزام بالإرشادات والنصائح المقدمة من قبل المختصين في الصحة والأمراض، بينما لوحظ وجود ردة فعل غير واعية وغوغائية غيبية، اجتاحت بعض المدن الإيرانية والعراقية، على سبيل المثال، حيث الأماكن المقدسة الشيعية وأسماء الأئمة المقدسة التي لا يمسّها فيروس كورونا، وكذلك في الهند، ظهرت سلوكيات مرتبطة بالمعتقدات الشعبية، مثل شرب ''بول البقر''، باعتباره وصفة شعبية ترتبط بمعتقدات دينية تشير إلى أنه يقي من فيروس كورونا ، لأن كثيرًا من الهندوس يرون الأبقار مقدسة، ويؤمن بعضهم بأن لبولها خصائص علاجية.

– **بروز دلالات ومفاهيم مرتبطة بالوباء:** لقد حمل الوباء في مدة وجيزة صفة العالمية، و تحوله من حالة بيولوجية إلى ظاهرة اجتماعية، هذا التحول افرز عدة مفاهيم ودلائل ارتبطت به وجعلت من مدلولاته موضوعا خصبا وحقلا تتموضع فيه عديد المفاهيم المستجدة لدى المجتمع، والتي كانت من أبرزها(الحجر الصحي، التباعد الاجتماعي الجيش الأبيض،البؤرة الوبائية، الواقي...الخ).

– **سرعة انتقال الإشاعة:** إضافة إلى ذلك، انتشرت موجة من الشائعات، أطلقها البعض وانجرف خلفها الملايين، من خلال وسائل التواصل الاجتماعي وخاصة (فيسبوك)، وتبين أن بعض الناس على استعداد لتلقي أي شائعة لتفسير ما يحدث حوله. وتعد هذه الفترات بيئةً خصبةً لصعود نظرية المؤامرة، ليس فقط بين الشعوب، بل أيضًا بين الدول. ولعل الاتهامات المتبادلة بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية بالوقوف وراء هذا الفيروس، دليلٌ على ذلك.

غير أن الباحث "Darim al-Bassam حاول فهم الصلة الاجتماعية لوباء كورونا من خلال الإطار النظري الذي طوره الباحث **فليب سترونج**، حيث لاحظ الوباء الناجم عن نقص المناعة hiv في ثمانينات القرن الماضي مرتبط بالديناميات الاجتماعية والنسق الاجتماعي للمجتمعات. وأشار إلى أن عبارة "علم الاجتماع الوبائي تحمل في مدلولاتها حقيقة مفادها أن المجتمع له طبيعة وبائية خاصة به، منفصلة تماما عن وباء المرض، ويمكنه الانتشار بين الأشخاص بسرعة هائلة، وفي نفس الوقت يمكن أن تأخذ عملية انتقاله مجموعة متنوعة من الأشكال . وربط قابلية تطبيق علم الاجتماع الوبائي تجريبيا ومعمليا، من خلال استخدام ثلاثة أنواع من الأوبئة النفسية الاجتماعية، والتي تمكنها من فهم جائحة كورونا، باعتبار لها القدرة على إصابة الجميع في المجتمع تقريبا. وفصلها في الآتي:

1.وباء الخوف : فسر الخوف على أنه رد فعل لتعامل مع التهديدات المقررة و المقدرة ، وهو مزيج بين الشك و القلق و الذي كان بدايته في منطقة وهان الصينية ، فهناك الخوف أن يصاب الشخص بالفيروس ، و الشك بأن يكون مصابا بالفعل به ، و مع ارتفاع عدد الحالات المرضية المؤكدة، ازداد القلق العام الذي يغذيه الشعور بالعجز و الضعف .

أما السمة الثانية للخوف من هذا المرض الوبائي المستجد هي الهوس بعادات جديدة مثل: غسل اليدين المتكرر و الحفاظ علي المسافة مع الآخرين، و الانقطاع المفاجئ في التعاطف الاجتماعي الذي يأتي عادة من خلال المصافحة و التقبيل.

بينما السمة الثالثة والبارزة هي الطريقة التي يصبح فيها الخوف و الشك منفصلين تماما عن واقع الوباء، وذلك بسبب الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في نشر الشائعات و الأخبار الكاذبة.

2.وباء الوصم و الأخلاق : إن وصمة العار وكره الأجانب جانبان للأثر المجتمعي لتفشي الأوبئة المعدية . لفهم ذلك علينا الإشارة إلى مفهوم في علم النفس يسمى " جهاز المناعة السلوكي " هذا المفهوم يعتمد على فكرة أن جهاز المناعة البيولوجي لدينا ليس كافيا لمساعدتنا على تجنب العدوى ، لذلك يبدأ الخوف من الأشخاص المهاجرين في الظهور . و الأمثلة في أوروبا كثيرة فعلى سبيل المثال في الولايات المتحدة كان هناك تصاعد في الوصم تجاه أشخاص من أصل صيني و من أصل أسيوي بشكل عام ، و تم وصم الصين سياسيا من خلال وصف الوباء بأنه فيروس صيني، إلا أن حركة مضادة بدأت تظهر حيث بدأ الناشطون في التجمع بشعارات محاربة الوباء بدلا من محاربة الناس و فهم الحقائق و العلم ، فالفيروسات لا تميز بين الأشخاص أما بالنسبة للأخلاق ، فقد لاحظنا نزعة متزايدة في الآونة الأخيرة ، خاصة في الأوساط الدينية لإعطاء معني إلهي و مقدس لتفشي الوباء ، فكان عنوان خطبة القس الإنجيل **روبرت جيفرس** تركزت في الطرح التالي– هل فيروس كورونا ابتلاء من الله ؟ واختصر الإجابة بتحذيره أن "جميع الكوارث الطبيعية يمكن أن تغري في النهاية إلي الخطيئة " و في نفس المنحى قال العالم الإسلامي **الشيعي هادي المدرسي** ، المقيم في مدينة قم بإيران في مقطع فيديو تم تحميله علي الإنترنت ، أن انتشار فيروس كورونا هو بلا شك عقاب إلهي ضد الصينيين لمعاملتهم و استهزائهم و عدم احترامهم للمسلمين و الإسلام .

3. وباء الفعل ورد الفعل التكيفي: في جميع أنحاء العالم ، ظهرت ثقافة وردود أفعال تجاه فيروس كورونا للتعامل مع القيود المفروضة على الحياة اليومية ، و العزل الممل للحجر الصحي ، و البقاء في المنزل . ففي إيران ، ظهرت لقطات علي وسائل التواصل الاجتماعي للعاملين بقطاع الصحة يرقصون و يغنون في محاولة للحفاظ على معنوياتهم، حيث تواجه البلاد أسوأ تفش لفيروس كورونا خارج الصين .

أما أوروبا ، فقد بدأ الإيطاليون و الفرنسيون المحاصرون في شققهم يشعرون بالقيود المفروضة على حريتهم الشخصية، فقامو بفتح نوافذهم والغناء لتوليد الدعم ورفع المعنويات. فبشكل عام من الناحية الاجتماعية عندما يتعلق الأمر بالبقاء تجد البشر اكثر ميلا إلى المشاركة الجماعية الايجابية . و مع ذلك لا يزال انعدام الثقة بين الناس و الحكومات في معظم البلدان يلعب دورا في زيادة الصعوبات والعراقيل التي تواجه معالجة تفشي الفيروس، فالتفاوتات الراسخة والعميقة الجذور و الافتقار لشفافية، كلها وسائل تزيد من عدم الثقة والخوف و الذعر في حالة الأزمات والمخاطر. (Darim al-Bassam ا**2020**،)

إن التمثلات الاجتماعية حول المرض، هي مرض في حد ذاته يستدعي العلاج، ولا يمكن القضاء عليه إلا بالقضاء على كل الأفكار السائدة و الفاسدة، . والخضوع للسلطة السياسية التي فرضت على الأفراد الحجر الصحي في بيوتهم، واتخذت الدولة في هذا الشأن من المراقبة والمعاقبة آليات لضبط السلوكيات الفردية وعقوبة كل من تصرف خارج ما حددته السلطة ، مما يفيد أن المرض يتخد بعدا سياسيا

كما هو الشأن لدى" **ميشيل فوكو** الذي منح للمرض بعدين أساسيين ، الأول سياسي ارتبط ببداية تدخل الدولة في تدبير الحياة وتجويد الأنظمة السياسية. وبظهور الرأسمالية أصبحت في أمس الحاجة لمساعدات الأفراد لتحقيق أكبر إنتاج ممكن تزامنا مع انتشار الفيروس ، والبعد الثاني تاريخي من خلال تشكل المؤسسات الاستشفائية و الممارسات الطبية. (**زكريا الابراهيمي،28-2020/12**)

غير انه بالرغم من كل الاختلالات التي ظهرت خلال تفشي هذه الجائحة، إلا انه ساهم في بروز كثير من الأدوار بالمفهوم الوظيفي والتي تجسدت في –كما أشار الباحث(طلال المصطفى)- "بروز ثقافة التضامن الاجتماعي التقليدية، التي تجاوزتها معظم مجتمعات العالم بعد مرحلة الحداثة وما بعدها، وتحديدًا بعض مظاهر التضامن الاجتماعي الآلي، الذي تحدث عنه عالم الاجتماع الفرنسي **إميل دوركايم**، وعدّه سمةَ المراحل التنظيمية السابقة عن الرأسمالية.

ويتم هذا التضامن التقليدي عن طريق العادات والتقاليد والعواطف المشتركة بينهم، تلك العناصر التي تسمى ''روابط الضمير الجمعي''، وهي تعمل على إرساء طابع التكامل الاجتماعي الذي يُعدّ العامل الأساس في وجود العلاقات والتكامل بين الأفراد. حيث يستند على تكريس التوازن، من خلال فكرتين أساسيتين: الأولى في الوعي الجمعي المتمثل في مجموعة من المعتقدات والمشاعر المشتركة بين أعضاء المجتمع، بغض النظر عن هذا الوعي أهو حقيقي أم زائف، آني أم مستقبلي. أي الإيحاء بأن ما يجمع أعضاء هذا المجتمع أكثر مما يفرقهم، من خلال نمط واحد للمعتقدات والمشاعر يسود في المجتمع والهدف من ذلك هو التصدي ومواجهة الأخطار، والفكرة الثانية هي التضامن الاجتماعي أو التزام الفرد نحو الجماعة التي ينتمي إليها، ويراها **دوركايم** تسود كل المجتمعات، وإن اختلفت نوعية هذا التضامن باختلاف المجتمعات التقليدية والصناعية.

هذا ما لوحظ من خلال تصاعد الشعور الجمعي، وظهور المبادرات الاجتماعية في حالة الأزمات، أمثال فيروس كورونا، حيث تقل الفجوة بين الفرد والمجتمع، ويرتبط مصير الفرد بمصير المجتمع ككل، ويَظهر نوعٌ من الشعور الجمعي والتضامن، بين أعضاء المجتمع الذي يعاني تهديدًا واحدًا في الوقت نفسه، حيث ظهرت بعض السلوكيات في دول انتشار فيروس كورونا، مثل الغناء أو التصفيق في وقت محدد من شرفات المنازل ليلًا، للتعبير عن شكر الكادر الطبي والصحي على جهودهم وتعرضهم لخطر الموت، بينما هم في منازلهم بأمان، وهذا ما لوحظ في بعض المدن الفرنسية (باريس) واللبنانية (بيروت) والتواصل عبر النوافذ لدعم بعضهم بعضًا، وتحفيز أنفسهم على مواصلة المواجهة والحفاظ على التوازن، وبثّ مشاعر الأمل والتضامن. (**طلال المصطفى،2020/03/25**)

إن المبادرات والخبرات الاجتماعية التي سوف تنتج عن هذه الحرب الصحية، قد تساهم في تطوير أو تغيير الملامح الثقافية القيمية للمجتمعات كافة، خاصة مع زخم التفاعلات المتبادلة التي تصاحب مدة انتشار الفيروس، خاصة أن التكنولوجيا الحديثة –ومنها وسائل التواصل الاجتماعي– سوف تلعب دورًا رئيسًا في نشر الوعي، وتخفيف حدة ''التباعد الاجتماعي'' الذي يُطبق حاليًّا، وسيؤدي ذلك إلى ظهور سلوكيات اجتماعية وتوجهات صحية جديدة، استجابة للوضع الحالي.

ومن هنا فقد أصبح المجال الطبي موضوعا خصبا للبحث السوسيولوجي ، حيث اعتبر كعنصر من النسق الاجتماعي، موجه لحماية أعضاء النسق من الأمراض ونتائجها، وذلك من خلال إبراز العلاقة القوية بين البيئة الاجتماعية والبيئية الفردية للفرد أو للمجموعة، وقد تجلى خاصة مع تطور الباثولوجيا وظهور علم الأمراض مع المدرسة الباستورية (نسبة الى لويس باستور) ، ومنه تحولت النظرة العامة إلى المرض كمصطلح إلى مصطلح الصحة، ولم يعد ينظر إلى الصحة بوصفها حالة غياب المرض، فهذا انتقاص وتقليل من قيمتها.

III. مدركات المجتمع الجزائري لوباء كورونا:

كشفت جائحة كورونا عن تمثلات خاصة نوعا للمجتمع الجزائري للوباء ارتبطت في جوهرها بثقافة المجتمع وتمثلاته للصحة والمرض ،كما ارتبطت بمخزوناته التاريخية أيضا ، وهذا ما ترجمته المفهومات الشعبية المختلفة للوباء، ففي مبتدأ الوباء تصوره المجتمع عقابا إلهيا لأقوام حادوا عن المنهج الإلهي القويم ،كما تصوره انتقاما ربانيا واستجابة لدعاء عباده المظلومين (مثال الصين واضطهادها للمسلمين الإيغور)، لكن التمثل ما لبث أن عرف تحويرا وتطويرا عندما حل الوباء بالبلاد ،حيث أصبح عقابا لنا على معاصينا وفسقنا وبعدنا عن دين الله ، ثم امتحانا لصبرنا وتمحيصا لنا .

وبالعودة إلى مخزون المجتمع الجزائري وما تحفظه الذاكرة الجمعية حول الأمراض والأوبئة ، نجد أن هذا المخزون مثل الرافد الأول في تشكيل التمثلات المجتمعية حول وباء كورونا ، حيث ارتبط المرض دوما بالعقوبة الإلهية والانتقام الإلهي ، وهو ما يكشفه القاموس اللساني الشعبي بالدعاء بالمرض (روح يعطيك جدري، التيفيس ، ...) . كما أن تمثلات المجتمع اتسمت بنوع من الرهابية والتحاشي ومثال ذلك عدم التصريح ببعض الأمراض إخفاؤها وحتى عدم ذكرها ،ومن ذلك الاكتفاء بالتلميح لمرض السرطان بقولهم: هاذاك المرض. أو التحرج الشديد من ذكر مرض السيدا ..، أو عدم التصريح ببعضها الآخر كالأمراض الجلدية ، وأحيانا إخفاء المريض نفسه إذا كان مرضه تأخرا ذهنيا أو اضطرابا نفسيا أو مرضا عقليا. وهو بالضبط ما شهدناه إبان الجائحة من استماتة في إخفاء المرضى في العائلة خوفا من الوصم الاجتماعي مما أدى إلى الانتشار السريع للوباء في بعض المناطق من البلاد.

إن تمثل المجتمع الجزائري للمرض وللوباء تمثل حدي قطعي مرض /صحة ، إذ ليس بين الاثنين منطقة وسطى إما مرض يسلم في النهاية إلى الموت أو عافية من غير علة (موت بالمرض أو حياة بلا مرض) . فلقد كشفت الجائحة عن نزعة تجسيدية للمرض من خلال نفي التصور اللامرئي للمرض (الوباء الخفي) حيث جمع التمثل المجتمعي في نوع من المفارقة بين الموت وما يرتبط به من ماورائية وغيبية وبين مقدماته التي يتصورها مرئية مجسدة ، كأنه يقول (إن الموت لا يكون مخفيا) وهذا ما غذى الرفض الاجتماعي للاعتراف بالمرض وبالوباء حتى بعد خمسة أشهر من ظهوره وانتشاره.

وما يمكن رصده كذلك على صعيد التمثل أن تمثل الأفراد للوباء بقي تمثلا تابعا للجماعة غير مفارق لها نحتى أن أكثر الأفراد تعلما ظل يردد ما تردده الجماعة من عدم وجود الوباء ومحدودية تأثيره ، وهذا يعكس بشكل جلي سطوة الجماعة والانغماس فيها والاحتماء بها على الرغم من خطورة الوضع ،ويتبدى ذلك من خلال مقولة " إذا عمت خفت ". ورغم ذلك إلا أننا نسجل بدايات زعزعة لتلك التمثلات الارثودكسية وذلك نتيجة بعض التغيرات السوسيوثقافية ، وعلى رأسها تنامي الثقافة الصحية ورؤية بعض الفئات المجتمعية –خاصة المتعلمة منها– إلى الصحة بمنظور التوازن بانتهاج الوقاية والأكل الصحي وممارسة الرياضة حتى قبل المرض.

الخلاصة :

وخلاصة لما جاء يتبين جليا أن مصطلحات الصحة والمرض ليست جامدة، بل أنها تتطور مع الزمن، باعتبارها أبنية اجتماعية. لذلك أصبح مفهوم الصحة بالغ التعقيد في محتواه، وخاصة عندما يتم ربطه بمفهوم أخر وهو الرفاهية. وهذا ما أدى ببعض الباحثين إلى التكلم أن انفجار مصطلح الصحة. وبذلك تحول مفهوم سوسيولوجيا الطب إلى سوسيولوجيا الصحة ، والانتقال من فن العلاج والشفاء من الأمراض إلى وظيفة المحافظة على الصحة لدى الأصحاء.

وتظهر بشكل لافت دور العوامل السوسيولوجية كأحد العوامل المساعدة والمؤثرة في تفشي هذا الوباء(التعليم، الأسرة، الدين...الخ) ،هذه العوامل التي أصبحت دراستها والبحث في خصائصها وتأثيراتها من الضرورة بمكان في معادلة الصحة والمرض. لذا أصبح من الواجب إدراج وإشراك مجموعة التخصصات العلمية المهتمة بالشأن الاجتماعي والإنساني في الدراسات العلمية الصحية، لان الدراسات البحثية كشفت – بما لا يدع للشك- أن البحث عن العلاج يتطلب تضافر وتنسيق كل الجهود العلمية بمختلف تخصصاتها وفروعها.

إذن كشف وباء كورونا الضرورة الملحة إلى الاستعانة بالدراسات الاجتماعية(علم الاجتماع، النفس، الانتروبولوجيا...الخ) في عملية البحث والتقصي في المجال الصحي الوبائي، حتى يمكن الإحاطة والإلمام بكل مسببات انتشاره وتفشيه داخل المجتمع.ولهذا عكفت الدراسة الى اقتراح بعض التوصيات والتي تلخصت في ضرورة الاستعانة بمهمة البيداغوجيا الصحية التي تعمل على تزويد الناس بالمعارف اللازمة والتقنيات العلمية التي تجعلهم يحافظون دوما على حالتهم الصحية الجيدة ، والوقاية الذاتية من اجل التخلص من التبعية للطبيب والأدوية الكيماوية، ولذلك برزت الحاجة إلى السعي الحثيث نحو مبدأ التوازن بين الإنسان وبيئته (الاجتماعية،الطبيعية).وخاصة في ظل تأخر العلاج الكفيل في مجابهة مخاطر هذا الوباء، وبالتالي ظهور صحوة بيئية تتطلب تعديلا في أنماط سلوك كثير من الأفراد والجماعات، بغية تحقيق الأهداف المنشودة. وطبعا هذا حال وباء كورونا عندما عجز العلم عن إيجاد لقاح شافي وواقي، لجأ منظرو الصحة إلى الاعتماد على الوقاية كأداة محورية ووحيدة في مكافحة ومعالجة هذا الفيروس، كالتباعد الاجتماعي والنظافة وارتداء الجهاز الواقي، بالتالي مخاطبة الضمير الجمعي. وهذا كله يخضع إلى مدى التزام ووعي المجتمع بهذه المعايير والقيم الاجتماعية.

– الإحالات والمراجع :

01 فضيلة صدراتي (2006)، **المتغيرات الاجتماعية والثقافية والبيئية للصحة والمرض داخل المجتمع المحلي** ، مذكرة مخطوطة غير منشورة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر).

02 طلال المصطفى(2020)، **بعض من سوسيولوجيا فيروس كورونا**،موقع مركز حرمون للدراسات المعاصرةhttps://www.harmoon.org/opinions تاريخ الاطلاع 20/11/2020

03/ رشيد ابعوش (2020)، **التمثلات الاجتماعية لمرض فيروس كورونا(مقاربة سوسيولوجية)**

https://couua.com/2020/03/28 تاريخ الاطلاع 24/11/2020.

04/زكريا الإبراهيمي (2020)، **مشيل فوكو: أو المدخل السياسي إلى الصحة**،- https://www.alawan.org/2013/12/08/ تاريخ الاطلاع 22/11/2020.

05/عبد العالي دبله (2003)، **سوسيولوجيا الصحة من خلال إسهامات علم الاجتماع**،المؤتمر الدولي للعلوم الاجتماعية والصحية ودورها في التنمية الاجتماعية،الكويت.

06/guyot jean claud (1982) **quelle médecine pour quelle société** ; édition driva Toulouse France.

07 / Ahmed Aroua(1985) .**sante et environnement .**entreprise nationale du livre. Alger

08/ Darim al-Bassam(2020) **sociology of the pandemic. https://www.gulf-times.com/story/662204/Sociology-of-the-pandemic. 10/11/2020.**